بنو كعب ودورهم في الصراع العثماني – الايراني:

كان بنو كعب قد هاجروا من نجد الى العراق في وقت ما من القرن السابع عشر ، واستقروا عند المستنقعات القريبة من ملتقى نهر دجلة والفرات ، وفي عام ١٦٨٠ هاجروا مرة اخرى ، واستقروا في الجزء الجنوب الغربي من حوض نهر الكارون . أصبح لبنو كعب شأن بين العشائر عندما تولى الشيخ سليمان زعامتهم في العام ١٧٣٧ فقد استطاع ان يتوسع على حساب الدولتين العثمانية والايرانية مستفيدا من الاوضاع المضطربة التي ساءت في ايران عقب مقتل نادر شاه عام ١٧٤٧ ، ومن ضعف قوة البصرة البحرية وعجز سلطاتها عن ردعه . فبعد هذا التاريخ أخذت قوة كعب في الازدياد السريع في عربستان والتوسع في تلك المنطقة وبعد ان وطد الشيخ سليمان نفوذه في الجانب الشرقي من شط العرب ، أخذ يتجه نحو الغرب وبدأ في التوسع على حساب العثمانيين ، فاستولى على جزر البصرة الواقعة في شط العرب ثم عبر الى الضفة الغربية واستولى على منطقة الدواسر وعلى عدد من القرى ، واخذ يقوم بعرقلة الملاحة في شط العرب .

وبذلك اصبح بنو كعب في منتصف القرن الثامن عشر قوة بحرية يعتد بها في شرق شط العرب وغربه . ولما كانت الاماكن التي استولى عليها الشيخ سليمان يتنازعها العثمانيون والايرانيين ، فقد ادعى كل منهما حق السيادة عليه ، باعتباره من رعاياهم ، وطالبه كل منهم دفع الجزية اعترافا منه بسيادتهم عليه ، غير ان الشيخ لم يدفع الجزية للفريقين ، وبقى ولاءه مبهما ، كما لم يكن يحترمهما .

وكان الشيخ سليمان من جهة اخرى حريصا على ان يظل في علاقات طيبة مع كل الوجهاء العرب فيما جاور البصرة . غير ان تزايد قوة الشيخ سليمان ، والمكانة التي اصبحت عليها كعب بعد ان امتد سلطانها الى الانهار الصالحة للملاحة ، جعل من الصعب على العثمانيين والايرانيين وحتى الانكليز ان يتغاضوا عنه لانهم كانوا يرون في قوة كعب تهديدا لمصالحهم التجارية في البصرة .

وفي عام ١٧٥٧ شنت قوات ايرانية بقيادة كريم خان الزند هجوما على بني كعب بقصد اخضاعهم . لكن القوات المهاجمة انسحبت الى ايران بعد ورود انباء عن حدوث اضطرابا في اجزاء مختلفة من البلاد كما قام العثمانيون في عام ١٧٦١ بمهاجمة كعب واشتركت معهم سفن شركة الهند الشرقية الانكليزية ، غير ان الشيخ سليمان عندما ايقن انه لن يستطيع الاستمرار بمقاومتهم اشترط صلحا سهلا بإرساله هدايا الى باشا بغداد وعندئذ انسحبت القوات العثمانية من عربستان وعادت الى البصرة .

ولكن كعب سرعان ما قامت باغلاق شط العرب في وجه السفن الصاعدة والهابطة معا ، وشنت هجوما على منطقة الدواسر الكائنة على الجانب الغربي من شط العرب ، الامر الذي اثار فزع السلطات العثمانية في البصرة وغضب شركة الهند الشرقية إذ كانت لها مصالح في المنطقة فقررت الوكالة الانكليزية ارسال سفن مسلحة تتصدى لهم . وفي نفس الوقت وصل الى جوار البصرة والي بغداد علي باشا على رأس قوة عسكرية ، وعندئذ بدأت كعب بالانسحاب من الدواسر ، غير ان السفن الانكليزية كانت قد تحركت لتامين تلك المنطقة ، كما ان والي بغداد كان مصمما على تحطيم قوة هذه العشيرة التي اصبحت تسيطر على المناطق الاستراتيجية المطلة على شط العرب ولقد اشتبكت السفن الانكليزية مع اسطول كعب ، ولكن الشيخ سليمان آثر الصلح مرة اخرى وارسل من يتفاوض مع السلطات العثمانية ، متعهدا بتقديم ما عليه من رسوم ، فتوقفت العمليات العسكرية دون تسوية نهائية .

وكان الشيخ سليمان يدفع الاموال الى العثمانيين كما قدمها للإيرانيين ، لكي يثبت ولاءه اليهم وبذلك استطاعت كعب بهذا الاسلوب ان تتخلص بمحاولة فرض السيطرة عليها سواء من قبل العثمانيين أو الايرانيين وفي نفس الوقت استمرت كعب بتعزيز قوتها تدريجيا ، حتى اصبحت فعلا قوة لها وزنها في المنطقة ، وفي عام ١٧٦٥

كان في حوزتها عشر غلافات (سفن حربية) ، تتحرك بالمجاذيف عادة وتتميز بانها تستطيع السير في مياه قليلة العمق وكانت هذه السفن قد ادت دورا مهما في الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، فضلا عن سبعون سفينة صغيرة .

ولقد اخذ الشيخ سليمان بتعرض للملاحقة في شط العرب ، الامر الذي حال دون وصول الكثير من السفن التجارية الى ميناء البصرة ، مما اثر تأثيرا بالغا في تجارتها ، لذلك قام العثمانيون في مايس ١٧٦٥ بتوجيه حملة ضد الشيخ سليمان ، كانت مؤلفة من قوة برية تعدادها نحو خمسة الاف جندي مع قوة بحرية ، ولكن هذه الحملة فشلت في ايقاف خطر كعب فعادت القوات العثمانية الى البصرة .

وفي الثامن عشر من تموز عام ١٧٦٥ هاجمت كعب ، مستخدمة ست غلافات ، سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية الانكليزية كانت قد وصلت شط العرب في طريقها الى البصرة قادمة من مدراس في الهند ، واستولت عليها . كما استولت في اليوم التالي على يخت الشركة ، الذي كان قادما في طريقه الى البصرة قادما من بوشهر ويصحبته سفينة بنغالية تجارية كبيرة كان يقوم بحراستها ، وتم الاستيلاء عليها ايضا .

وعلى اثر هذا الحادث ، قام وكيل شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة بمقابلة متسلم البصرة لمناقشة الموقف ، وطلب من الشيخ سليمان بإعادة السفن غير ان كعب رفضت الاذعان لذلك . وعندئذ طلب وكيل الشركة حكومة البصرة بالتعويض عن السفن ، وبعث بخطاب الى حكومة بومباي في الهند ، اشار فيه الى الاخطار التي تتعرض لها تجارة الشركة . وبالنظر لخطورة الموقف ، جهزت حكومة بومباي على جناح السرعة اكبر حملة بحرية توجهها الى الخليج العربي من الهند ، وذكرت في الخطاب الذي بعثته الى وكيل الشركة في البصرة ، انها تريد بهذه الحملة انقاذ تجارتها في الخليج العربي من اية اعتداءات عليها في المستقبل ، وترد كعب

الى حظيرة الطاعة . ولقد حاول ممثل حكومة بومباي التفاوض مع الشيخ سليمان واعادة السفن الانكليزية مع شحناتها ، ولكن فشل في ذلك وعندئذ بدأت الحرب بين الانكليز والعثمانيين من جهة وكعب من جهة اخرى ، وارسل الوكيل البريطاني خطابا الى كريم خان الزند يرجوه فيه ان لا يؤوي اي لاجئ من كعب .

استطاعت كعب خلال العمليات الحربية التي دارت خلال اشهر صيف ١٧٧٦ ان يحرقوا تسع سفن عثمانية ، كما احرقوا السفينتين الانكليزيتين اللتين كانوا قد استولوا عليها ، بعد ان قام الانكليز بمحاولة فاشلة لاستردادها .

وعندما شن الانكليز هجوما لاقتحام استحكامات بني كعب في خور موسى ، ولكنهم ردوا على اعقابهم بعد ان تكبدوا خسائر فادحة .

ولم تتوقف العمليات الحربية الا بعد ان تدخل كريم خان الزند ، الذي ارسل مبعوثا الى العثمانيين والانكليز يطلب منهم الانسحاب من ارض بني كعب ، مدعيا انها اراضي ايرانية ،وان بني كعب من رعاياه ، وذلك بعد ان ناشدته كعب ان يتولى حمايتها . وقد ابلغت السلطات العثمانية وكيل شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة ، بانها مضطرة الى الاستجابة لمطلب كريم خان خشية ان تنشب حرب بينهم وبين الايرانيين ، وعلى هذا انسحبت القوات العثمانية من المنطقة ، واكتفى الانكليز بضرب حصار بحري على كعب .

وخلال مدة الحصار التي استمرت سنتين (١٧٦٦-١٧٦٨) تمكن بنو كعب من بناء مواقع حربية على جانبي شط العرب ، دون ان تتمكن قوات شركة الهند الشرقية ان تحد من ذلك مما اضطر الانكليز الى رفع الحصار عن كعب دون ان يحققوا شيئا ، وهددوا باشا بغداد بانهم سوف يتخلون عن حماية البصرة ويسحبون اسطولهم الراسي في شط العرب ، اذا لم يعوضهم عما لحق بهم من خسائر في حربهم مع كعب ، وقد قبل باشا بغداد ان يتحمل كافة نفقات الاسطول فأخذ يدفع مبلغ الف تومان شهريا . وقد ظلت كعب قوية مهابة وقادرة على التصدي للقوى المجاورة حتى

ان السلطات البريطانية كثيرا ما أوصت ممثلها في منطقة الخليج العربي بتجنب كعب وعدم التورط معها باي شكل من الاشكال . وبقيت مسألة تبعية كعب موضوع صراع بين الدولتين العثمانية والايرانية ، بل كانت احدى المشاكل المعقدة التي واجهت الدولتين في القرن التاسع عشر.

الغزو الايراني للبصرة (١٧٧٥-١٧٧٩)[١]

كان لهزيمة الجيش الايراني في شمالي العراق والخسائر الكبيرة التي مني بها ، أسوأ الاثر في نفس كريم خان الزند ، الذي بادر على الفور باستعداداته الحربية على نطاق واسع . وكان من المتوقع ان ينتقم بعمل ضد بغداد او البصرة وكانت الثانية هي ارجح الاحتمالين ، إذ ان كريم خان كان مغتاظا من النجاح التجاري الذي احرزته البصرة ، اذ اتسعت عوائدها وتزايدت اهميتها بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية الانكليزية اليها وتركز في البصرة جميع تجارتها مع الخليج ، وتضائل الاهمية التجارية لبوشهر الايرانية .

وكانت هناك ايضا اسباب اخرى جعلت كريم خان يفكر في شن هجوم على العراق تمثلت باحتماع العثمانيين والانكليز من تقديم المساعدة لكريم خان ضد امام عمان عام ١٧٧٤ . عندما اراد شن هجوم ضده . وكذلك لانشغال القوات المسلحة الايرانية بعيدا عن الوطن ، بعد ان شعر كريم خان بوجود تذمر بين صفوفهم واخيرا كان انشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الخارجية ، إذ كانت حرب مع روسيا ، والتي انتهت بتوقيع معاهدة كوجك كنارجي عام ١٧٧٤ التي عدت بداية النهاية للدولة العثمانية بسبب الشروط القاسية عليها واقتطاع اجزاء منها لصالح روسيا القيصرية ، وفي العراق كانت الثورات العشائرية ضد السلطة العثمانية ، وما تركه وباء الطاعون الذي حل ببغداد عام ١٧٧٣ من دمار اذ فتك بمعظم سكانها .

(١) جعفر الخياط: تاريخ العراق في العصور المظلمة ، ص١٨٧-١٩٦

وازاء كل هذه الاسباب كان كريم خان يبحث عن ذريعة تكون بمثابة عود ثقاب يشعل بها نار الحرب ، فطالب برأس والي بغداد عمر باشا مدعيا انه يسئ معاملة التجار الايرانيين ويسلب اموالهم ، ويفرض ضرائب على الايرانيين الذين يذهبون لزيارة العتبات المقدسة في العراق ، كما أتهم والي بغداد بتقديم المساعدة الى امام عمان . وتقدم كريم خان بشكاوي عديدة الى الباب العالي يبين فيها امتعاضه من هذه الامور وطلب التدخل لحماية الرعايا الايرانيين ، غير انه لم يتلق جوابا من الحكومة العثمانية ولا سيما وان مطالبته برأس والي بغداد كان من الطبيعي ان تقابل بالرفض من قبل السلطان العثماني .

وعندئذ ارسل كريم خان الزند في اوائل عام ١٧٧٥ قوات كبيرة لمهاجمة العراق من عدة جهات ، فقد تحركت من شيراز لمهاجمة البصرة قوات يقودها شقيقه صادق خان تعدادها خمسون الف مقاتل فضلا عن اسطول يتكون من ثلاثين سفينة صغيرة. وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات اخرى يقدر عددها بعشرين الف مقاتل قد عبرت حدود العراق الشمالية واحتلت عدة مواقع مهمة ، واخذت تتقدم باتجاه كركوك ، فاجتاحت بعض قراها .

ولكن ما ان بدأت القوات الايرانية بمحاصرة البصرة ، حتى اصدرت القيادة الايرانية اوامرها الى قواتها في جبهة العراق الشمالية بإيقاف زحفها والانسحاب داخل الحدود الايرانية ، ومن ذلك يتضح ان الغرض من هذه الخطة العسكرية هو جعل العراق يحارب على عدة جبهات مما يضعف قابلياته على التحرك والدفاع . والتأثير على جبهته الداخلية ، بخلق حالة من الرعب والفوضى وعندئذ تسهل مهمة القوات التي يقودها صادق خان لاحتلال البصرة هدف كريم خان الزند الحقيقي .

لقد أثارت القوات الايرانية الزاحفة الذعر في العراق واصبح الموقف العسكري فيه بالغ الخطورة ، إذ لم يكن باشا بغداد من القوات ما يستطيع بها صد الهجوم الايراني ، لذا عرض الامر على الباب العالي وطلب المساعدة العاجلة . ولأجل استجلاء